نصّ أدبيّ

نزار قبّاني (١٩٢٣-١٩٩٨م)

شاعر سوريّ، وُلِدَ في أحد أحياء دمشق القديمة .جدّه أبو خليل القبّاني، مؤسّس المسرح العربيّ في القرن الماضي. ووالده توفيق قبّاني من رجالات الثورة السوريّة الأماجد. حصل على البكالوريا من مدرسة الكليّة العلميّة الوطنيّة بدمشق. ثمّ التحق بكليّة الحقوق بالجامعة السوريّة (جامعة دمشق حاليّاً) وتخرّج فيها عام ١٩٤٥م. وعمل فور تخرّجه بالسلك الدبلوماسيّ بوزارة الخارجيّة السوريّة. وتنقّل في سفاراتها بين مدن عديدة .وظلّ متمسّكاً بعمله الدبلوماسيّ حتّى استقال منه عام ١٩٦٦. بدأ كتابة الشعر وهو في السّنة السادسة عشرة من عمره. وأصدر أوّل دواوينه عام (١٩٤٤م)، وهو ديوان "قالت لي السمراء". له (٣٥) ديواناً شعرياً. كتبها على مدار ما يزيد على نصف قرن أهمّها "الرسم بالكلمات، قصائد، سامبا، أنت لي".وله عدد كبير من الكتب النثريّة من أهمّها: "قصّتي مع الشعر، ما هو الشعر، ١٠٠ رسالة حب".

مدخل إلى النصّ:

يبقى الرثاءُ الاستجابةَ الحقيقيّةَ للنفسِ المترعةِ بالحزنِ أمام عظمةِ الموتِ، فينسابُ شعراً وجدانيّاً مفعماً بأنّاتِ الروحِ وصدقِ الأحاسيسِ حين يكوي الفقدُ قلبَ أبٍ مسكونٍ بحبّ الحياةِ ولهفةِ اللقاء. هذا ما ترجمهُ نزار قبّاني حين امتدّت يد المنيّة لتخطف ابنه وهو في يناعة الشباب. فكانت قصيدتُه تعبيراً صادقاً عن حرقةِ أبٍ أراد ردّ كفّ الفجيعةِ بلغةٍ تزفرُ حزناً ولوعةً مستجيبةً لعاطفةٍ تتدفّقُ صدقاً على خفقاتِ روحِهِ الحزينة.

النص:

...١...

مُكسَّرةٌ كَجُفونِ أبيكَ هيَ الكَلِماتْ..
ومَقصوصَةٌ، كجناحِ أبيكَ، هيَ المفرداتْ
فكيفَ يُغنِّي المغنِّي؟
وقدْ ملأَ الدَّمعُ كلَّ الدَّواةْ..
وماذا سأكتُبُ يا بني؟ وموتُكَ ألغى جميعَ اللُّغاتْ..

...٢...

أَشيلُكَ، يا وَلَدي، فوقَ ظهرِي كَمِئْذَنَةٍ كُسِرَتْ قِطعتينْ..
وشَعْرُك حَقْلٌ مِنَ القَمْحِ تَحْتَ المَطَرْ
وَرَأْسُكَ في راحَتِي وَرْدَةٌ دِمَشْقِيَّةٌ.. وبقايا قَمَرْ
أُواجِهُ مَوتَكَ وَحْدِي.. وأَجْمَعُ كُلَّ ثيابِكَ وَحْدِي
وألثمُ قُمصانَكَ العاطِراتْ..
وَرَسْمَكَ فوقَ جوازِ السَّفرْ
وأصرخُ مِثْلَ المَجانينِ وَحدِيْ
وكلُّ الوُجوهِ أمامِي نُحاسْ
وكلُّ العُيونِ أمامِي حجَرْ
فكيفَ أُقاوِمُ سَيْفَ الزَّمانْ؟
وَسَيْفِي انْكَسَرْ..

...٣...

سأخبرُكُمْ عَنْ أَميرِي الجَميلْ
عَنِ الكانَ(*) مِثْلَ المَرايا نَقاءً، ومِثْلَ السَّنابِلِ طُولاً.. وَمِثْلَ النَّخيلْ..
وكانَ صديقَ الخِرافِ الصَّغيرةِ، كانَ صديقَ العصافيرِ، كان صديقَ الهَديلْ..
سأخبرُكمْ عنْ بنفسجِ عينيهِ..
هلْ تعرفونَ زجاجَ الكنائِسِ؟
هلْ تَعْرِفونَ دُموعَ الثُّرَيَّاتِ حينَ تسيلُ..
وهلْ تعرفونَ نوافِيرَ روما؟
وَحُزْنَ المَراكِبِ قَبْلَ الرَّحيلْ؟
سأخبرُكمْ عنهُ..

* استعمل القدماء هذا الأسلوب في إدخال (ال) التعريف على الفعل.

كانَ كيُوسُفَ حُسناً.. وكنتُ أخافُ عليهِ منَ الذِّئب
كُنْتُ أخافُ على شعرِهِ الذّهبيِّ الطّويلْ
... وأمسِ أتَوا يَحمِلونَ قميصَ حبيبي
وقدْ صَبَغَتْهُ دِماءُ الأصِيلْ
فما حِيلتِي يا قَصيدةَ عُمْري؟
إذا كُنْتَ أنتَ جَميلاً..
وحَظِّي قليلْ(*) ..

...٤...

أُحاوِلُ ألَّا أُصَدِّقَ أنَّ الأَميرَ الخُرافِيَّ توفيقَ ماتْ..
وأنَّ الجَبينَ المُسافِرَ بينَ الكَواكِبِ ماتْ..
وأنَّ الَّذي كانَ يَقْطِفُ مِنْ شَجَرِ الشَّمسِ ماتْ..
وأنَّ الَّذي كانَ يخزِنُ ماءَ البحارِ بِعينَيهِ ماتْ..

...٥...

أتوفيقُ ..
إنَّ جُسورَ الزَّمالكِ ترقُبُ كُلَّ صَباحٍ خُطاكْ
وإنَّ الحَمامَ الدِّمَشْقِيَّ يَحْمِلُ تحتَ جَناحَيهِ دِفْءَ هَواكْ
فيا قُرَّةَ العَينِ .. كَيفَ وَجَدْتَ الحياةَ هُناكْ؟
فَهَلْ سَتُفكِّرُ فينَا قليلاً؟
وتَرجِعُ في آخرِ الصَّيفِ حتَّى نَراكْ..
أتوفيقُ ..
إنِّي جَبانٌ أَمامَ رِثائِكَ..
فَارْحَمْ أباكْ...